مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية ثقافية تصدر سنوياً

العدد الثانى

1985

- من قضايا الفكر والعقيدة
- مذاهب بلا إسلام
- معارف إسلامية
- مخطوطات ليبية
- دور الفكر الواقعى فى النهضة الإسلامية

من

قضايا الفكر العقيدة

• دراسة فى حلقات • الحلقة الثانية • الاستاذ الصديق يعقوب

عقيدة التوحيد : مفهومها ، دلائلها ، ومنهج القرآن الكريم فى عرضها .

○ مباحث العقيدة فى كتب التراث : إثراء للفكر وانحراف بالعقيدة مناهج وموضوعات .

○ الفرق الاسلامية انما نشات فى غياب المنهج بعيداً عن روح القرآن .

○ فى فكرنا المعاصر اقلام عابثة تحاول الإبقاء على هذا التفرق بعد ان زالت أسبابه ودواعيه .

○ مسئولية الباحث المسلم نحو الشباب المسلم .

- ١ -

هذه الدراسة التى تقدم حلقاتها تباعا على صفحات هذه المجلة الناشئة ليست الغاية المرجوة من ورائها أن تقول شيئاً انما القصد منها ان تثير حوارا حول قضية تعتبر فيما ارى من اهم القضايا فى هذا العصر بل فى كل عصر . انها قضية العقيدة بما يحمل هذا المصطلح من معان جلية او خفية تتصل بحياة الانسان فى كل زمان ومكان .

لقد تردد الحديث فى هذه القضية منذ ان بدأ الانسان يخط على بياض ان لم يكن من قبل ذلك لكن الحديث مع ذلك لم ينته ويقيننا انه لن ينتهى ذلك بان التقدم فى الزمن اثار من قضايا الانسان مالم يكن مثاراً من قبل وتكشفت للباحثين فى شؤون الكون وعالم الانسان اسرار كانت فى ضمير الغيب الى زمن ليس بالبعيد . وكان فى كل هذا تمحيص للعقائد ، وابتلاء لذويها فى عقائدهم : ايهم اثبت عقيدة واقوم سبيلاً .

واذا كان هناك ما يؤخذ على هذه البحوث بصورة مجملة فى افقها المتصل بالعقائد وصفاً او تحليلاً او نقداً فهو ان قصدها لم يكن دائماً احقاق الحق ، والبحث عن الاحق بل انها تمثلت فمثلت الحقيقة الانسانية من وجهها الاجتماعى التاريخى متمثلة فى هذه الصورة او تلك من صور الصراع بين الحق والباطل فى دائرة الفكر ، او بين الخير والشر فى محيط الممارسة والسلوك . وهذه حقيقة يشهد بها تاريخ الفكر بعامة وتاريخ الفكر الدينى بخاصة . وقد كانت الحرب سجالاً بكل الوسائل وعلى كل الجبهات . ولا نحسب ان الصراع سيتوقف يوماً مادامت الحياة والاحياء . لكن الحقيقة المؤكدة ان هذا الصراع ليس مما يمليه الانتماء الى هذه العقيدة او تلك انما هو من طبائع البشر . بل لعلنا لانذهب بعيداً اذا قلنا : ان العقيدة فى وضعها الصحيح انما تكون من اجل الحد من هذا الصراع ، لانها تكبح الجماح ، وتعيد المعتقد الى رشده ، وتكشف للانسان حقيقته ، ومركزه فى الكون والحياة ، وتوفر لها قدراً من الامان . وتلك لعمرى امور تمكن للعقيدة ، وتجعل لها الاعتبار الاول لدى الفرد وعند الجماعة : « **فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلايضل ولايشقى . ومن اعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة اعمى** ». « ١ »

- ٢ -

ان الصراع الفكرى عندما يكون بين امة واخرى . او بين حضارة آفلة وحضارة اخرى ناشئة قد يكون له ما يبرره لانه من طبيعة الاشياء ومن سنن الاجتماع : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ولكن الله ذو فضل على العالمين » « ٢ » لكن الصراع حين يكون داخل الامة الواحدة أياً كان العنصر الذى تعتمد عليه فى وحدتها فان هذا الصراع فى هذه الحال يمثل ظاهرة تستدعى التوقف عندها ، والبحث عن الاسباب التى تكمن وراءها ، ويتأكد امر هذا التوقف والبحث اذا اقحمت قضايا العقيدة فى جبهة الصراع . واذ نسجل هذه الملاحظات مدخلاً لهذه الحلقة من دراسة هذا الموضوع لن نبحث هذه القضية فى اطارها العام انما نثيرها للحوار فقط فى محيطها الاسلامى الذى يمثل جزءا من الافق الانسانى العام اذا وضعنا فى الاعتبار بعض الخصائص التى يمتاز بها الاسلام وكتابه القرآن ، وتنفرد بها الامة المسلمة بين الامم .

- ٣ -

ان مباحث العقيدة فى كثير من كتب التراث الاسلامى تمثل عبئاً على الدارس ، وتجعله يعانى طيلة بحثه صراعاً داخلياً تنتهى الدراسة ولا ينتهى .

والبحث فى الغالب بسبب هذا الصراع قد يفتهى الى نتائج غير سديدة لانها ليست موضوعية . اما سبب كل ذلك فهو ان بعض كتب التراث ونعنى بالطبع بعض الكتب المعنية بامر العقيدة قصداً او عرضاً هذه الكتب نشأ معظمها فى جو من التحزب والتفرق والخصام فلم تتهيأ لمصنفيها الفرصة ان يسألوا انفسهم او يتساءلوا : الى اين يتجهون بهذه البحوث . وما هى نتائجها القريبة والبعيدة ؟ وان توقف البعض - بعد ان تساءل - عن السير فى هذا الاتجاه الا ان الكثرة سارت فيه شوطاً بعيداً . وكانت حصيلة ذلك هذا العدد الكبير من الاتجاهات والفرق والاصول ناهيك عن الفروع مما جعل واحداً من ابرز اعلام البحث فى العقائد وهو العلامة ابو الحسن الاشعرى يخصص واحداً من كتبه«٣» التى وصلت الينا فيجعله مسرداً لهذه الفرق ومقالاتها . ومما يلفت النظر فى هذا الكتاب ان الاشعرى اورد فيه فرقاً ومقالات لايوصلها بالاسلام سبب . وعلى هذا النسق وصلت الينا مؤلفات لاعلام آخرين اشتهر من بينهم : الاسفراييني والبغدادى والشهرستانى وابن حزم . هذا الى جانب المؤلفات التى خصصت لفرقة بعينها او للترجمة لاعلام هذه الفرقة او تلك وتأتى كتب الطبقات فى مقدمة هذه المؤلفات . ما هى السبيل الى التعرف على معالم العقيدة الاسلامية فى وسط هذا البحر اللجى الذى يغشاه موج من فوقه موج ؟ الحقيقة انه لاسبيل الى ذلك بسبب أن هذا الجانب من التراث ماهو فى معظمه إلا جدل كلامى وشقشقة لفظية وظلال من التأويلات المتعسفة لآيات القرآن الكريم . وما كل ذلك كان من اجل توضيح قضايا العقيدة وابراز دلائلها لكن معظم ذلك كان بقصد الانتصار لهذه الفرقة او تلك او للترويج لهذا الاتجاه او ذاك .

- ٤ -

ان نشأة الفرق الاسلامية وتطورها والصورة التى انتهت اليها كل ذلك انما تم فى غياب المنهج بعيداً عن روح القرآن . ونصوص القرآن فى هذا الشأن ترد كل التعليلات والتبريرات لنشأة الفرق وتعددها ولنزعة الابقاء عليها : « **ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات** «٤»

ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم »«٥» .

« **وما تفرق الذين اوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءتهم البينة . وما امروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء** »«٦» .

« **ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء** »«٧» .

لقد بدأ الحوار بين اهل الاسلام قديماً حول كثير من القضايا هى الى الفرضيات اقرب منها الى الامور الاعتقادية .
ونجد نمطاً من هذا فى مقالات من نعتوا فى كتب المقالات بالخوارج والمرجئة . ومن هذا القبيل ايضاً بين من عرفوا بالمعتزلة وبين من اشتهروا بالاشاعرة . اما قاصمة الظهر فتلك لعمرى نزعة الخلاف والشقاق بين من يدعون بالشيعة ومن يسمون باهل السنة .
علام الخلاف وما مصدره ومن الذى يبقى عليه والى متى هذا الابقاء ؟؟؟ ان دموع المسلمين يوم وقعة كربلاء على الحسين عليه السلام وآله صارت فيما بعد مداداً لتسطير مسائل الخلاف ومواطن الاختلاف . وان صنيع نفر من طغاة بنى امية بالحسين وآله اعتبر من قبل بعض المسلمين جريرة يتحمل وزرها المسلمون فى كل الاجيال بل العقيدة ذاتها تتحمل بعضاً من هذه التبعة فتنشأ داخل الاسلام اتجاهات متعارضة ومتضادة . ان الخلاف هنا ليس شكلياً بل هو موضوعى يتعلق ببعض الاصول لكنه خلاف مفتعل اتت به ظروف ونمته وابقت عليه ظروف اخرى . وما كان لاصول العقيدة كما وضحها القرآن وعاشها الرسول صلى الله عليه وسلم والذين معه ، رضى الله عنهم ما كان لتلك الاصول على هذه الصورة ان تتحمل هذا اللون من الاختلاف . ولكن ذلك كله انما نشأ نشأة مشبوهة خارج دائرة القرآن وان جرت اليه نصوص هذا الكتاب جراً . ومن الغريب حقاً ان يعدد بعضنا اسباب اختلاف المسلمين وتعدد فرقهم ولا يرى حرجاً من اعتبار القرآن بسبب ما ورد فيه من المتشابه واحداً من اسباب الاختلاف «٨» . ان هذا الكلام مردود على قائله جملة وتفصيلاً . وان الخلاف حول المتشابه فى القرآن وان اورده مؤرخو الفرق والمقالات الا انه خلاف غير ذى بال ولو فرض وجوده فانه ليس ناشئا عن القرآن ذاته بل ان منشأه هذا الموقف او ذاك الذى تتخذه هذه الفرقة او تلك من المتشابه خصوصاً بعد ان وضح القرآن ذاته المنهج الذى يجب ان يتبع فى فهم هذه المتشابهات ونشير بهذا الصدد الى موقف السلف من هذه القضية وهو من الوضوح والشهرة بحيث لايحتاج الى بيان او تأكيد .

- ٥ -

ان تعدد الفرق والاتجاهات المتعارضة تجاه قضايا العقيدة كان بلا شك مساهمة بارزة فى اثراء الفكر الاسلامى بل الفكر العالمى على العموم ولكنه من جانب آخر كان السبب المباشر فى تكون هذه الظلال والحجب والغشاوات حول قضايا العقيدة التى ابرزها ووضح معالمها القرآن . ومن ثم فقد وصلت الينا مسائل العقائد الاسلامية فى صور متعددة اضفت عليها كل فرقة الطابع الملائم لاتجاهها وموقفها من هذه الفرقة او تلك ولفهمها لهذا النص او ذاك من نصوص القرآن الكريم . ولو كانت هذه الاتجاهات تسعى بحق الى ابراز معالم العقيدة واصول الدين واظهار دلائلها لانتهت دراسات اعلامها الى نتائج تثرى الفكر وترضى العقيدة ولكن ذلك لم يكن : لقد تصارع

المتكلمون فيما بينهم وصارعوا الفلاسفة وتألب الجميع على المتصوفة فما كان من هؤلاء الا ان ينهجوا نهجاً مغايراً للجميع . وهذه الصور كلها تعطينا انطباعاً بان كل ذلك قد تم بدون وعي لدعوة القرآن وعلى غير هداه وما دام كذلك فلا تثريب علينا في اطراحه او لامناص لنا من تنقيته . ولسنا بمنتهين الى نقطة نهاية وبداية الا من خلال هذا العمل : تنتهي الخلافات المفتعلة التي صدعت اركان مجتمعنا الاسلامي ونبدأ حركة جديدة نحو الوحدة لامة التوحيد وماهي في واقع الامر ببداية ولكنها استئناف لمسيرة الامة على عهد الرسول عليه الصلاة والسلام والذين معه رضوان الله عليهم .. لقد ساروا على هدى القرآن مصدر عقيدة ومنهج فكر واسلوب حياة وفي هذا الجو الاسلامي الخالص تعددت الآراء ولكن في المواقف التي تسمح طبيعتها بذلك ومع تعدد الآراء وتباينها احياناً كان الكل مسلمين وكفى . كان الجميع على سنة الرسول صلى الله عليه وسلم عندما كانت هذه السنة سلوكاً يتبع لاشعاراً يرفع . وكان الجميع يحفظون لاهل البيت مكانتهم ويتقربون الى الله بحبهم عندما كان حب هؤلاء في مكانه الصحيح لم يتجاوز حدوده الى درجة التطرف والتقديس والى لون متعسف في تأويل النصوص .

الا يحق لنا بل الا يكون لزاماً علينا بعد هذا التطرف في هذه الاتجاهات ان نتبرأ منها جميعاً ونتخلص من هذه التسميات انه قضية ملحة في هذه الحقبة من تاريخنا وفيما نستقبل من هذا التاريخ نخاطب بها ومن اجلها الضمير الحي لدى كل مسلم يغار على امته كما يغار على عقيدته .

- ٦ -

لعل هذا الذي سلف يسمح لنا بان نتساءل : ما بال اقلام تتحرك اليوم عابثة تنبش التراب عن الماضي لتبرز لنا صور الخلاف القديم في ثوب جديد بل لتعمق هذا الخلاف بعد ان زالت اسبابه وتوارت دواعيه «٩» . ربما تعلل رواد الفكر المفرق من اسلافنا او تعللنا لهم بهذه التعللات الواهية من انهم كانوا يعيشون في ظل حضارة غالبة وامة قوية وقوة ضاربة وان كل ذلك قد سمح لهم بهذا اللون من الترف في الفكر والتباين في الاتجاهات والمشارب ، ولكن اين نحن من اولئك . لقد تداعت علينا الامم وليس هناك من عامل يمكنه ان يفعل الافاعيل بين المسلمين من اجل النهوض بهم وتوحيدهم غير هذه العقيدة ، فما هذه العقول الواهمة وما هذه النفوس الممتلئة غيظاً وحنقاً وما بال هؤلاء النفر من الكتاب بيننا الذين يجترون احداث التاريخ متناسين ما جرته علينا تلك الخلافات من محن . ان سلسلة من الكتب المتفرقة والمفرقة تخرج حلقاتها تباعاً .. يؤكد مؤلفوها على السير في هذا الاتجاه بحجة شرح بعض جوانب العقيدة او التاريخ لهذه الفرقة او تلك . وهكذا تتجدد المأساة في كنف الفكر من خلال كتابات بعض المسلمين . وتلقن الاجيال الناشئة في العالم الاسلامي مقالات عن هذه الخلافات والاختلافات المصطنعة بدل ان تقدم لهم العقيدة الاسلامية بمنهج القرآن مصفاة من

هذه الشوائب التى علقت بها عبر التاريخ فنالت من صفائها ونصاعتها .

- ٧ -

ان الزمن يسابق رجال الدعوة والفكر فى اقطار العالم الاسلامى وان زمام القيادة قد يتخطفه اناس مغرضون واذ يصار الى ذلك لايجد الثقاة من رجال الفكر والدعوة من يستمع الى صرخاتهم . ان الشباب فى اقطار العالم الاسلامى قد صار الى فئات اجتذبت فئة من اتجاهات غربية غريبة عنه تتنكر للاسلام وللدين على الاطلاق لاهثة وراء المغريات من متع الحياة . واعتصمت فئة قليلة بالدين ولكن الى حين : لقد وجدت هذه الفئة من الشباب المسلم الحياة من حولها فى سلوك افراد المجتمع لايوصلها بالاسلام سبب فكان رد الفعل لدى افراد هذه الفئة اما افراط او تفريط . اما الكثرة من الشباب داخل العالم الاسلامى فانهم فى مفترق الطرق يعانون فقراً مدقعاً فى الثقافة والفكر ، وتصدعاً مقرعاً فى العقيدة والسلوك وهذه الصورة بكل ابعادها تضاعف مسئولية الرواد والقادة من الدعاة والمفكرين فمن خلال عمل جماعى منظم ومسئول يمكننا ان نخطو مع هؤلاء الشباب الخطوة الاولى فى الاتجاه الصحيح نحو الاسلام فكراً وعملاً عقيدة وسلوكاً كل ذلك بمنهج القرآن وفى كنف امة واحدة هى امة التوحيد التى مثلت عبر تاريخها منذ بدء نزول القرآن والى الآن الاتجاه المضاد لكل الامم التى حادت على سبيل الله . ان هذا الهدف يقتضينا عملاً دائباً من اجل توضيح صورة الاسلام وتعميقها ، وازالة ما علق بها عبر التاريخ من ركام اخفى كثيرا من معالمها . ان الانسان بلا عقيدة انما هو انسان آلى ينقصه الابداع الذاتى لانه تنقصه الارادة . وان اعداد المسلم اعدادا شاملاً يقتضي ان نقدم لهذا المسلم تصورا صحيحا واضحا للب العقيدة وجوهرها وهو التوحيد .

وهذا العمل - فيما ارى - لا يتحقق من خلال البحث النظرى المجرد الذى يسلب هذه العقيدة حيويتها ، ويفقدها الترابط والتكامل بين عناصرها . إن هذه العقيدة على الرغم من أنها دعوة جميع الرسل ولب الاسلام إلا أنها لم تنل من البحث ما تستحقه لا بل إنها بحثت فى كثير من كتب علم الكلام على غير الوجه الصحيح ولا نستبعد أن يكون هذا عملا مبيتا دبره أناس غاظهم أن تكون العقيدة فى الاسلام بهذا الوضوح والصفاء .

ففى إطار مباحث هذه العقيدة بمناهج علم الكلام دار جدل حول ذات الله وصفاته ولم يكن وراء هذا الجدل من طائل ، واعتبر المعتزلة أنفسهم خطأ بل اعتبرهم غيرهم خطأ ايضا بأنهم أهل العدل والتوحيد أى القائلين حقا بعدل الله ووحدانيته ولنا أن نتساءل إذا خرجنا من دائرة الاصطلاحات الكلامية الضيقة وماذا عن بقية المسلمين من غير المعتزلة . هل يصفون الله بغير العدل وهل يدعون مع الله إلها آخر ؟ لقد كان منطق المعتزلة يمثل رد الفعل . والفعل ورده بعيدان عن المنطق - فيما أرى - بل هما إلى المغالطة والجدل واللعب بالألفاظ اقرب .

لعل من المقبول أن ينشأ خلاف فى الرأى حول قضايا جزئية لا تمس أصول العقيدة ولا تنال من وحدة الأمة ولا تخرج عن منهج القرآن ، أما أن تتصارع هذه التيارات وتتألف هذه الفرق لتتنازع حول قضايا تتصل بأعز ما تملك الأمة وهو العقيدة لتخرج بها عن المسار الصحيح فذلك مما لا نرتضيه ولا نبقى عليه مهما بلغت مكانة التراث فى نفوسنا . ومهما وصلت درجة اسلافنا من التقدير لدينا .. ان العزم لمعقود على أن نتجاوز تلك الاخطاء فى دراسة العقيدة الاسلامية مناهج وموضوعات من أجل ان نتفهم قضاياها فى ظلال القرآن فهذا الكتاب هو الذى أسس لها وساق دلائلها وكشف اللثام عن مناقضاتها وتتبع تاريخها فاستقطبت ببراهينه القلوب والعقول ونالت برعايته حظاً عظيما من التصديق والقبول .

وهذه وقفة مع عقيدة التوحيد نسوق خلالها لمحات عن عقيدة الاسلام هذه ونشترك مع القراء الكرام فى مطالعتها من آيات القرآن الكريم تطبيقا للمنهج الذى ارتأينا سلفا انه الاصح والأصلح لدراسة قضايا العقيدة بعيداً عن جدل الكلام وطرائق المتكلمين .

- ٨ -

مفهوم التوحيد :

إن الاعتقاد بوجود قوة عليا مسيرة للكون أمر فطرى لدى الانسان ولكن هذه الفطرة لم تكن فى وقت من الأوقات كافية وحدها لتوجيه الانسان وتمكينه من التصور الحق فى هذا الاعتقاد ومن ثم كانت هذه الحلقات المتتابعة من سلسلة الرسل الذين اصطفاهم الله للتبليغ . وعلى ضوء الدراسات المتخصصة فى قضايا الدين والعقيدة برز من النتائج فطرية التدين وعموم الاعتقاد لدى كل الأمم والشعوب وفى كل الحضارات وإن اختلفت الصور والطقوس ورسوم العبادات وهذا لا ينفى وجود فترات تاريخية ظهرت فيها صور من الالحاد أو نماذج من الايمان المحرف . ولكن الالحاد دائما كان النغم النشاز فى لحن التدين الذى عم بنغماته المتناسقة كل أرجاء المعمورة فى كل زمان .

هذه نتيجة محمودة للدراسات التى ظهرت عن الأديان ولكن مصدر الزلل فى كثير من هذه الدراسات هو ما استند عليه الدارسون من تخمينات وفروض واقيسة ينقصها التحقيق : فإذا ما وجد عالم متخصص فى مثل هذه الدراسات أن احدى القبائل البدائية فى ادغال افريقيا ينتمى افرادها إلى هذا « الطوطم » ويقدسونه بصور من العبادة أو وجد أمة فى آسيا يقدس افرادها بعض مظاهر الطبيعة انتهى من ذلك إلى حكم سريع هو أن الانسان فى رحلته مع العقيدة بدأ بعبادة آلهة متعددة وأن التوحيد فى العقيدة انما انتهى إليه الانسان فى مرحلة لاحقة نتيجة ضرورية لهذا التطور المحتوم . (١٢) ولعل قضية التوثيق فى مثل هذه المسائل تكون ذات اهمية قصوى ؛ فالدراسات الموثقة هى المعتبرة والمقبولة منهجيا لكن المشكلة تكمن فى شخص الباحث فلكل باحث انتماؤه العقدى والثقافى والحضارى العام وموضوع مثل موضوع العقيدة وهو قديم قدم الانسان لا يمكن أن يتوفر حوله من الوثائق قدر مشترك يرتضى الجميع وفى كل وقت وللتغلب على هذه المعضلة كان من الممكن أن توضع الوثائق المستخدمة حول هذه الدراسات فى ميزان النقد ولكن دون ذلك عقبات ليس أهونها أن علماء المقارنة بين الأديان لا يبحثون من وراء دراساتهم عن الحقيقة وحدها ان بحثوا عنها بل يبتغون من وراء دراساتهم استكشاف المجهول والمثير وإن اقتضاهم ذلك التعلق بألوان

الأساطير أو ضروب من السحر والكهانة يبنون من خيوطها المقدمات لينتهوا إلى نتائج هى فى ميزان النقد أوهام وتخمينات .

- ٩ -

وإذا اعتبرنا نحن المسلمين أن القرآن هو الوثيقة التى يمكن الاعتماد عليها فى مثل هذه المباحث فإن هذه الوثيقة لا ينكر أهميتها حتى من لا يؤمن بها وذلك لعدة اعتبارات من أهمها الجانب التاريخى الذى سجل القرآن الكثير من حقائقه ولكن تحول بين هؤلاء وبين القرآن حوائل منها التصورات العقدية المغايرة لمقتضيات القرآن فى أمر العقيدة وهذا أمر يجعل من الصعب حتى لدى الباحث الموضوعى اتخاذ موقف محايد من هذه الوثيقة لكنا مع كل ذلك نرى ان الدراسات التى ظهرت أو سوف تظهر فى مباحث العقيدة ومقارنة الأديان قد كانت نتائجها وسوف تكون تبعا لموقفها من القرآن قربا أو بعدا بالقصد أو بالاتفاق . وبهذا الصدد نتجه بالدعوة إلى ذوى القدرات المادية والمعنوية فى الاقطار الاسلامية من افراد وهيئات أن يضطلعوا بمهمة عظمى تتمثل فى تصحيح مسار هذه الدراسات بعد متابعتها وترجمتها وعرضها على التاريخ الصحيح لعقيدة الانسان كما عرضت حلقاته متتابعة فى القرآن .

- ١٠ -

إن نقطة البدء فى معارضة نتائج تلك الدراسات بمسلمات القرآن الكريم هى أن الانسان بدأ عقيدته بالتوحيد أما تعدد الآلهة على اختلاف صوره عند مختلف الأمم فلم يكن إلا انحرافاً فى العقيدة برز بصورة واضحة خلال تلك الحقب التاريخية التى تفصل زمانا ومكانا بين رسالات الله إلى الناس .

ومن خلال العرض لعقيدة التوحيد ودلائلها نستكشف مظاهر الانحراف عن هذه العقيدة عبر التاريخ قبل نزول القرآن واثناء نزوله وبعد تمام النزول إلى يوم الناس هذا وإلى يوم الدين ذلك بأن مقاييس القرآن وموازينه فى هذه القضية ثابتة وهى عامة شاملة لا تختص بأمة ولا تحد بمكان أو زمان .

- ١١ -

فى آيات القرآن الكريم وفى كثير من المواضيع فيه لا نجد حدودا فاصلة بين دلائل الوجود - أعنى الوجود المطلق وهو وجود الله تعالى - وبراهين التوحيد : فآيات القرآن تقدم هذه وتلك فى نسق واحد أحيانا ولكل طلبته فمن يبتغ الدلائل على وجود الله يجدها ، ومن يسلم بهذا الوجود وينحرف فى بعض تصوراته لهذا الوجود يجد ما يقنعه ويرجعه الى الصواب إن شاء :

« سبح اسم ربك الأعلى الذى خلق فسوى . والذى قدر فهدى . والذى أخرج المرعى فجعله غثاء احوى » . ١٣ . هذه مشاهدات الانسان فى حياته فهل يتأتى لعاقل أن يتصورها وقد جاءت مصادفة . إننا هنا وبكل وضوح نقف أمام حقيقة الكون الكبرى وجود الله . والألوهية

بمقتضياتها إنما تتأتى لمن يكون من الخلق والرزق وتكون له كل صفات الكمال التى منها الوحدانية .. والقرآن إذ يورد هذه الحقيقة وما تستلزمه من صور إيمانية ليس بدعا فى كل هذا الذى يورده بل « إن هذا لفى الصحف الأولى صحف ابراهيم وموسى » (١٤) وتكمن اهمية القرآن فى اعتباره الكلمة الأخيرة للوحى ومن حيث إنه وثيقة تاريخية يمكن اعتمادها من قبل المسلمين وغير المسلمين على السواء .

ما هى حقيقة التوحيد التى كانت موضوع حوار جميع الرسل مع أممهم : « ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت » (١٥) وما مضمون هذه العقيدة ؟ ذلك ما يجيب عليه القرآن بكل وضوح وفى أساليب متنوعة لأن هذه العقيدة هى ما أمر الرسول بتبليغه فى أبسط وأشمل وأوضح صورة « قل هو الله أحد الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد » (١٦) إن هذا النص القرآنى على ايجازه يمثل سندا للمؤمن فى ايمانه ، ورد على الملحد فى انحراف فطرته وعلى من آمن بالله لكنه تخبط فى تصوراته عن الله . وإذا كان من أولى أساسيات الاعتقاد الوضوح فلن نجد وضوحا اكثر من هذا الوضوح فى هذا النص الكريم .

- ١٢ -

إن اعتقاد المؤمن بوحدانية الله يقتضى إيمانا مطلقا بهيمنة الله على هذا الكون خلقا ورعاية وحفظا وعناية . وإن مقتضى إثبات الألوهية لله وحده نفيها عن كل ما سواه ولعل هذه المسلمة العقدية هى ما يستخلص من الصور التى عرضت فيها عقيدة الوحدانية فى القرآن الكريم حيث نجد أن أسلوب القصر بكل صوره مستعمل فى الآيات التى تضمنت هذه القضية : « الله لا إله إلا هو الحى القيوم »«١٧» . « الم لا اله الا هو الحى القيوم »«١٨» . « إنما إلهكم الله الذى لا إله الا هو » . «١٩» : « وما ارسلنا من قبلك من رسول إلا يوحى اليه انه لا اله الا انا فاعبدون »«طه» . « إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد »«٢١» وأسلوب القصر هذا بما يتضمنه من وضوح الصورة على ما تتطلبه قضية العقيدة نجده ايضا مستعملا فى تحديد مهمة الرسول وبيان مقامه : « إن أنت إلا نذير » (٢٢) « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا » . (٢٣) « إن عليك إلا البلاغ » (٢٤) وبأسلوب من اساليب القصر وفى صورة جامعة للمقامين نقرأ فى القرآن الكريم : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد » (٢٥) وهكذا حين نتتبع النصوص القرآنية المتضمنة لعقيدة التوحيد نجد دائما هذا النمط من التعبير الذى يثبت الألوهية لله بعد نفيها عن كل ما سواه .

وقد تتنوع صور التعبير فتعرض عقيدة التوحيد فى بعض الآيات بصور أخرى مثل التأكيد : « إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش » . (٢٦) « والصافات صفا فالزاجرات زجرا فالتاليات ذكراً إن الهكم لواحد رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق »«٢٧» .

وإذا استقرأنا آيات القرآن الكريم فلن نجد قضية من القضايا التى عنى بها القرآن على كثرتها وتنوعها عرضت بهذه الصورة من التأكيد بالتكرار أو بتنوع صور العرض أو بحشد البراهين والدلائل مثل ما تم لعقيدة التوحيد . وإذا كان موقف القرآن من هذه القضية وعلى هذه الصورة

يستحق معاناة الدراسة والبحث إلا أنه فى ذاته ليس بالامر المستغرب إذا وضعنا فى الاعتبار أن عقيدة التوحيد هى لب الدين وهى القاسم المشترك فى رسالات الله إلى الناس كافة وأن القرآن الكريم يعد خلاصة الوحى الالهى إلى جميع الرسل وفى آياته تصحيح مسار الاعتقاد لدى كل الأمم ومن خلال مفاهيم تسهيل إزالة الركام والغشاوات التى صارت يوما بعد يوم تحجب الابصار عن الرؤية الصحيحة لعناصر العقيدة وتزرع الشكوك فى دائرة الفكر وتعيد الى تاريخ الأمم الحاضرة السخافات والأوهام التى كانت سائدة حينا من الدهر فى عقائد الأمم الماضية .

مهمة القرآن لم تكن مقصورة على تحويل العرب عن عبادة الاوثان بل كانت اكبر من ذلك وأرحب دائرة فى المكان والزمان : كانت آياته تسجل على الانسانية أخطاءها الماضية وتوضح لها فى مستقبلها أسس العقيدة الثابتة ولم يعد هناك مجال لواحد من البشر أن يعتذر لانحرافه فى العقيدة بجهل او خطأ حيث بلغته هذه الوثيقة الالهية فوعاها . أما أمر القطع بثبوت هذه الوثيقة فتلك قضية لها شواهدها وبراهينها القاطعة من القرآن ذاته ومن صريح العقل إذا احتاج أمر القطع بالثبوت من العقل إلى دليل .

- ١٣ -

لعل الجدير بالملاحظة هنا أن مفهوم عقيدة التوحيد - كما تستنبط من القرآن الكريم بكلياتها وجزئياتها - يجعل لهذه العقيدة تصورا فريدا يبعد بها عن كل التصورات المغايرة لها ولوكانت هذه التصورات تقترب من هذه العقيدة فى بعض الجوانب ناهيك عن التصورات التى لا يربطها بهذه العقيدة سبب بل هى على النقيض منها : لقد اشتهر فى تاريخ الأديان أن أحد الفراعنة وهو أخناتون خلال فترة حكمه أراد أن يحدث تغييراً فى عقيدة أمته ففرض على المصريين التوجه بالعبادة إلى إله واحد . ولكن يحسن أن لا نمضى بعيداً فى تصورنا لهذه العقيدة الفرعونية فى الاله الواحد خلال تلك الفترة الوجيزة التى خضع فيها المصريون لسلطان « أخناتون » إذ سرعان ما تراجعوا عن عقيدة « أخناتون » هذه حين صار الأمر إلى فرعون آخر على أن عقيدة «أخناتون » هذه لم تكن خالصة من الشوائب حيث برزت فيها عبادة الشمس باعتبارها رمزا أو مظهرا لهذا الاله . (٢٨) وتلك صورة من صور الوثنية التى تواردت على عقائد الأمم فى فترات انتكاسها قديما وحديثا والبيئة التى يرتفع فيها صوت معلنا : « أنا ربكم الأعلى » فتضعف وتستكين وتستمع إلى هذا الصوت طوعا أو كرها هذه البيئة لا يمكن أن نتصور فيها وبين أفرادها عقيدة صحيحة وهى عقيدة التوحيد .

إلا إذا تصورنا مع ذلك صراعا بين هذا الصوت الملحد النشاز وبين نفوس مؤمنة بالاله الحق سواء أكان عدد أفرادها قليلا أم كثيرا داخل أى مجتمع وثنى مستضعف مستكين .

- ١٤ -

قد يظن - كما قد ظن بالفعل - أن قضية الالوهية وجودا وتوحيدا إذا ماعولجت

بالعقل المجرد فى دائرة الفكر وبمناهجه فان بالامكان الوصول إلى الحقيقة بشأنها حتى فى غياب الوحى . ولعل قضية «حى بن يقظان» كما وردت بأقلام بعض أعلام الفلسفة فى تاريخ الفكر الاسلامى أقول لعل هذه القصة الرمزية ذات الخيال الخصب ترمى الى اثبات هذا الافتراض والبرهنة عليه بهذا الاسلوب القصصى المشوق .

أما مقياس العقيدة وموازينها ودلائلها وبراهينها فإن تلك المحاولات لاتعدو أن تكون لونا من شطط الفكر ينتظم فى فلسفة الخيال أو خيال الفلسفة على أننا لاننكر ان هذه المحاولات فى أصفى صورها تشير فقط الى ومض من الحقيقة التى لا تبرز معالمها واضحة إلا من خلال كلمات الوحى المنزل .

ولايخرج عن إطار تلك المحاولات ماوصل إلينا من نتائج البحث فى هذه القضية عند بعض المشاهير من الفلاسفة :

فواجب الوجود ـ العاطل ـ عند ارسطو لايمكن بحال ان يكون هو الاله الواحد الذى جاءت صفاته تترى فى آيات القرآن الكريم . ولم يعرف أرسطو أولم يصل إلينا عن ارسطو أنه يعرف عن الهه هذا إلا أنه واجب الوجود . ووجوب الوجود. هذا يعتبر اثباته لله من البدهيات فى عقيدة المؤمن إلاأن بعض أعلام الفكر منا هللوا لأرسطو وحاولوا جاهدين أن يسترضوه وأن يحيوا ذكراه بين المؤمنين وذلك بالمطابقة بين واجب الوجود عنده وبين الله الذى نؤمن به ونؤمن بأن الوجود إنما هو صفة من صفاته .

وابعد من هذا المثال عن عقيدة المؤمن فى الله الواحد «مثال الخير» عند أفلاطون وكذلك «واحد» أفلوطين لأن فيهما من التجريد وعلى الخصوص فى الأخير منهما مايكاد يتلاشى معه «الموضوع» اعنى المقصود بهذا المثال عند أفلاطون وبهذا «الواحد»عند أفلوطين .

ولسنا نستغرب النتائج التى انتهت إليها مباحث هذه المسألة من وجود الله أو وحدانيته فى تلك الأمثلة وماشابهها مماتقدم عليها أو تأخر عنها فى تاريخ الفكر الانسانى كله ، ذلك بأن أفق هذه القضية أبعد من حدود رؤية العقل فأدواته غير كافية فى عملية البحث عن معالمها ، من أجل ذلك كان الوحى ، وبسبب هذا كان العقل ـ وهو مناط الخطاب والتكليف ـ معذورا فى غياب الوحى : « وماكنا معذبين حتى نبعث رسولا»٢٩: « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » ٣٠ : «إنا ارسلناك بالحق بشيرا ونذيرا وإن من امة إلا خلا فيها نذير» ٣١ .

ومن خلال ماتقدم لايتأتى أن نشك لحظة بل نؤكد لمن يتسرب إليه الشك أن العقيدة

الاسلامية كما صورها القرآن الكريم إنما هى نمط فريد لديه مناعة ذاتية وحوله من السدود والقيود مايجعله فى مأمن من تسرب نقائضه أوشىء منها إليه . ومن يتصور أن هذه العقيدة تبقى على بعض نقائضها أوتبقى معها نقائضها فهو واهم اومحرف أوزنديق أومتقول بغير حق .

وبهذا الصدد ، ومن اجل المعرفة الخالصة والحق لذاته ، يجب ان تعرض نصوص الفكر التى كتبت عن العقيدة فى الاسلام يجب عرضها جملة وتفصيلا ماكتب منها بأقلام المفكرين الاسلاميين أو ما كتب بأقلام غيرهم من الملاحدة أو ممن لايدينون بالاسلام ، يجب أن تعرض هذه النصوص بكلياتها وجزيئاتها على القرآن وتوزن بميزانه : فلاتغرينا تخرصات الاشاعرة ولاادعاءات المعتزلة ولاأوهام المشبهة والمجسمة ولاخيالات الشيعة ولاشطحات الصوفية ولا تأويلات هؤلاء جميعا ، لان هذه كلها إنما نشأت فى اجواء التفرق والتمزق والمعارضة والمخاصمة والمجادلة بعيدا عن القرآن ، فهى لاتمثل العقيدة الواحدة كما وضحها القرآن فليس من الموضوعية فى شىء أن نستخلص صورة العقيدة فى الاسلام من خلال نصوصها تاركين آيات القرآن .

لقد دارت كتابات أعلام الاستشراق حول هذه القضية فعبثت اقلام هؤلاء بمعالم العقيدة من خلال نصوص وكتابات بعض أعلام الفكر من المسلمين . إن ميزان الايمان والالحاد قد اهتز او اختفى عند محى الدين بن عربى ومن جاء على شاكلته من اقطاب التصوف الفلسفى أوالفلسفة الصوفية . وإن نفرا من المتصوفين هؤلاء قد توهموا أنهم وحدهم قدعرفوا الله حق المعرفة وآمنوا به صادق الايمان وطارت الكلمات على أفواههم لاتستقر على معنى ولاتثبت على موضوع ، وغدت آيات القرآن لدى هؤلاء مفرغة من معانيها يخضعونها لتأويلاتهم ويمزجونها بمصطلحاتهم فتنعدم معانيها عندهم وتصير احكامها لديهم أوهاما وتأويلاتها فى نظرهم أفهاما .

إن النظر إلى العقيدة فى الاسلام من خلال مقالات هذه الطوائف يعطى الناظر تصورا لايغنى من الحق شيئا .

إن كليات العقيدة الاسلامية وجزئياتها إنما تؤخذ من القرآن ومن يقل إن فى علم الكلام ومباحثه الدلائل والبراهين العقلية على قضايا العقيدة فهو واهم . ومن ير غير هذا فبيننا وبينه آيات القرآن ومقالات المتكلمين .

لنأخذ مثلا عقيدة التوحيد هذه التى هى منار البحث وقطبه هنا لنتبين بعض دلائلها وبراهينها بعد أن وضح لنا الكثير من معالمها . ماذا نجد عند المتكلمين من هذه الدلائل والبراهين ؟

أوضح الدلائل عند هؤلاء برهان التمانع ، وهذا البرهان يعتمد على قياس شرطى استثنائى مقدمته الاولى آية من القرآن الكريم ، مقدمته الثانية قدرها المتكلمن وقدروا معها نتيجة هذا القياس وظنوا انهم قد أراحوا بذلك واستراحوا . وكأن هذه القضية - قضية الوحدانية يكفى لاثباتها هذا البرهان الذى كان مثارا لكثير من الاعتراضات والافتراضات من المتكلمين انفسهم » ٣٢ .

إن هواة المنطق الصورى قد يستهويهم هذا القياس الذى تردد فى كتب المتكلمين . ودلالة هذا البرهان على موضوعه «التوحيد» قائمة رغم اعتراضات المتكلمين المفترضة . ولكن هذه الدلالة مع وجودها لاتكفى لمن يبحث عن سند قوى لايمانه يخاطب العقل والقلب ويناجى كل منازع الشعور ويجيب على أسئلة المؤمن عن خالقه ويرد اعتراضات الملحد ليخرج الى نور الفطرة من إلحاده، ويواكب مسيرة الانسان فى هذا الكون الذى تمثلت فيه كثير من البراهين على وحدة الخالق من خلال نداءات القرآن المتكررة الداعية إلى النظر والى إرجاع الابصار فى جوانبه .

وتتساوق البراهين والدلائل وتتآزر منظورة فى أرجاء الكون الفسيح ومقروءة فى كتاب الله القرآن الحكيم: «إن الهكم لواحد رب السموات والارض وما بينهما ورب المشارق ، إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب» ٣٣ .

وتعالى الله وتقدس فى علاه عن الشريك الموهوم فالذى يستحق صفة الألوهية بحق هو من: «خلق السموات والارض بالحق تعالى عما يشركون ، خلق الانسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين . والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل اثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم » ٣٤ .

وإن الفطرة الصافية لتهتف بالنفس المطمئنة الصادقة : أن من هذه صفاته من الخلق والرزق والعناية والتدبير - إنما هو المستحق للربوبية دون سواه من الأرباب المتفرقين وكيف لاينفرد بالربوبية من هو وحده الرءوف الرحيم بعباده : «والهكم إله واحد لااله إلا هو الرحمن الرحيم»٣٥

وهكذا على هذا المنوال فى آيات القرآن الكريم وردت كل صفة من صفات الله باعتبارها دليلا على وحدانية الله . يتقدم هذا الدليل فى الذكر على هذه الحقيقة أويتأخر عنها ذلك بما يقتضيه المقام لكنه ملازم لها ملازمة الدليل للمدلول :« **خلق السموات بغير عمد ترونها والقى فى الارض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وانزلنا من السماء ماء فانبتنا فيها من كل زوج كريم . هذا خلق الله فارونى ماذا خلق الذين من دونه**» ٣٦ .

« الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون . وهو الذى مد الارض وجعل فيها رواسى وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفى الارض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » ٣٧

وهكذا تنقلنا الآيات وتتنقل بنا بين البراهين والدلائل على توحيد الله من خلال عرضها المتكرر لصفات الله بأسلوب متنوع وتنوع بديع وإبداع مشوق وتشويق مثير وإثارة هادفة وهدف اسمى هو توحيد الله .

- ١٧ -

وبعيدا عن هذا الجو القرآنى المفعم بالروحانيات الزاخر بالمعانى السامية والحقائق الثابتة عن الله والكون والانسان بعيدا عن هذا الجو ، وفى جو آخر ملبد بالغيوم والمباحث الكلامية فى صورها الجدلية المقيتة دار صراع فكرى بين بعض أعلام الفكر منا حول صفات الله نفيا لها أوإبقاء عليها

زائدة على الذات أم جزءا منها .. واستطرد البحث إلى القرآن الكريم باعتباره كلام الله هل هو قديم أم مخلوق . وكانت نتيجة ذلك الطعون المتبادلة وسهام الكفر الطائشة لابل والجروح تصيب بعض المسلمين . وتوهم اولئك وتوهمنا معهم - أن تلك بحوث معتبرة فى بعض قضايا العقيدة ولكن الحقيقة فيما أرى - أن ذلك هوانحراف عن المسار الصحيح لفهم العقيدة منهجا وموضوعا .

- ١٨ -

ومن خلال استعراضنا لآيات القرآن الكريم المعنية بالبرهنة على وحدانية الله من خلال عرضها لصفاته نلاحظ عناية القرآن بهذه القضية منذ بدء نزوله على الرسول صلى الله عليه وسلم بمكة إلى اختتام هذا النزول قبل انتقال الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى بقليل . وهذه الحقيقة القرآنية وموقف القرآن هذا من قضية التوحيد أمر جدير بالتسجيل والملاحظة :

ففى سورة الأعراف المكية نقرأ : « إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل والنهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره الا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين » ٣٨

وفى سورة النحل المكية ايضا نقرأ :« والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكى لايعلم بعد علم شيئا إن الله عليم قدير » ٦٩.

وفى سورة البقرة وهى مدنية نقرأ : «يأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وانزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون » ٤٠ .

وفى سورة الحشر وهى مدنية ايضا تتألق عقيدة التوحيد متكررة وهى فى كل مرة ذكرت فيها اشرقت مع دلائها : «هو الله الذى لا اله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم . هو الله الذى لاإله إلاهو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون هوالله الخالق البارى المصور له الاسماء الحسنى يسبح له مافى السموات والارض وهو العزيز الحكيم» ٤١ .

وهكذا تورد عقيدة التوحيد فى آيات القرآن الكريم المكى منها والمدنى وتتوارد عليها الدلائل والبراهين تخاطب الانسان من خلال العقل والوجدان وتستخدم الكون المحيط به فى صور شتى من الاستدلال : تخاطب البدوى على راحلته وتحاور رائد الفضاء فى سفينته . وتجيب على اسئلة الكيمائى فى معمله . وتبرق للفلكى فى مرصده . وتقتحم على الطبيب مشرحته وتلاحق الانسان مع خطوات نفسه بل ومع تقلبات شخصه . كل هذا واكثر من هذا مع جميع هؤلاء وغير هؤلاء من أجل أن يعى البشر كافة حقيقة الحقائق وهى أن لهذا الكون الها واحدا هو رب العالمين جميعاً لا تكون العبادة لسواه ولا يتأتى الخضوع لغيره . وأن جهل هذه الحقيقة أو إغفالها والتغافل عنها انما هو ضرب من الانحراف عن الفطرة أو الانحراف بهذه الفطرة مهما تعددت صور هذا الانحراف أو تنوعت دواعيه واسبابه .

أن الانحراف عن توحيد الله تعالى يتمثل فى الشرك بكل صوره . واذا كانت عقيدة الوحدانية تظهر من خلال براهينها العقلية ودلائلها الكونية بعامة ، فإنها تبرز بصورة أخرى من خلال إبراز حقيقة الصورة المناقضة لها المتمثلة فى الشرك بكل صوره ومظاهره لذا كان من تتمة الدعوة الى وحدانية الله والتأكيد عليها فى القرآن الكريم أن يعنى هذا الكتاب بقضية الشرك باعتبارها الطرف المقابل للايمان . ويمكننا القول بدءا بأن دلائل الوحدانية إذا كانت تعطى بمنطوقها ركائز لهذه العقيدة فإن مفهومها فى حد ذاته يمثل ابطالا للشرك بصرف النظر عن الدلائل الخاصة التى جاءت فى كثير من آيات القرآن الكريم لكشف صور الشرك وتبكيت ذويها . وهذا من وجهة نظر استدلالية خالصة .

نلاحظ فى آيات القرآن الكريم التى عالجت قضية الشرك والمشركين أنها تعتمد بالدرجة الأولى لغة الحوار : ففى المقابلة بين توحيد الله وبين الاشراك به نقرأ : « قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون . كذلك حقت كلمات ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون . قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون . قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق قل الله يهدى للحق أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدى إلا أن يهدى فما لكم كيف تحكمون » « ٤٢ » ؟

وتعقيبا على هذا الحوار نقرأ عن المشركين : « وما يتبع أكثرهم إلا ظنا إن الظن لا يغنى من الحق شيئا إن الله عليم بما يفعلون » « ٣٦ »

وفى هذا التعقيب نفى للشرك من اساسه بل التأكيد على أن الشرك ليس له أساس .

وأن المشرك ليس له سند إنما هى مجرد ظنون لا يتأتى لعاقل أن يعتمد عليها فى قضية الايمان . وفى مقابلة تستحق التأمل من المؤمن ومن المشرك كليهما نقرأ « ذلك بأن الله هو الحق وأن ما تدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلى الكبير » « ٤٤ » . وهذه المقابلة تستند الى المشاهدة : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير » « ٤٥ » .

وقد ترد هذه المقابلة بين التوحيد والشرك فى صورة الدعوة الى التوحيد مقرونة بالتنفير من الشرك تأتى تعقيبا على أثر سرد لبعض صفات الله الواحد : « والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون والأرض فرشناها فنعم الماهدون . ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ففروا الى الله إنى لكم منه نذير مبين . ولا تجعلوا مع الله إلها آخر إنى لكم منه نذير مبين » « ٤٦ » .

والشرك في كل صوره بمقياس الحلال والحرام في القرآن موضوع في أعلى قائمة المحرمات: «قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً» (٤٧) وبهذا الاعتبار حكى القرآن الكريم من وصايا لقمان الحكيم لابنه: «يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم» (٤٨).

ونظراً لأن المشرك لا يؤمن بالله الواحد فقد سد في وجهه باب الغفران لشركه حتى يكون على بصيرة من عاقبته: «إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً» (٤٩).

وليس الشرك بالله أمراً يقتصر على سريرة المتردي فيه ويحدد هويته ويكشف طويته بل يتعدى ذلك إلى الانعكاس على علاقته بالمؤمن في بعض ممارسات الحياة اليومية: «يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا» (٥٠) فأمر العقيدة هو المعيار في تحديد نوع العلاقة ولا عبرة بكسب مادي أو معنوي يجنيه المؤمنون بسبب علاقتهم مع طائفة مشركة.

وفي صورة من صور الحوار بين داعية التوحيد نبي الله الخليل ابراهيم عليه السلام وبين عبدة الأوثان من قومه تنقل لنا آيات القرآن الكريم هذا الحوار بصورة تنقلنا إلى ساحة الحوار تلك أو تنقل تلك الساحة إلينا أشخاصاً وأصواتاً بل نغمة الحوار ونهايته: «واتل عليهم نبأ ابراهيم إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون. قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين. قال هل يسمعونكم إذ تدعون. أو ينفعونكم أو يضرون. قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون. قال افرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدو لي إلا رب العالمين. الذي خلقني فهو يهدين والذي هو يطعمني ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين والذي يميتني ثم يحيين والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين» «٥١».

ولنا أن نثبت هنا أن هذا الحوار من شأنه أن يدور بين التوحيد والشرك في كل زمان وفي أي مكان ومع ذلك فهو لا يفقد قوته ولا ينال منه الزمن ولعل في هذا يكمن سر إيراده في القرآن الكريم. وإذا كان الحوار في بعض صوره يدخل في اطار القصص القرآني فإن القصة في القرآن الكريم من أولى خصائصها اعتمادها الصدق. واعتبار الهدف عاملاً أساسياً من وراء إيرادها. وعلى تعدد الأهداف وتنوع القضايا التي وردت في قصة يوسف عليه السلام إلا أن قضية التوحيد والشرك وردت في هذه القصة خلال ومضات سريعة لكنها مشرقة إشراق نفس نبي الله يوسف الصديق عليه السلام. وقد جاءت في صورة حوار أيضاً: «يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار. ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون». ٥٢.

وهكذا تعلن عقيدة التوحيد عن نفسها في كل زمان وفي كل مكان حتى من وراء الأسوار في عالم السدود والقيود. وفي نقلة سريعة في هذه الصورة تطوى الزمان طياً

وتربط الحاضر بالماضى من خلال عقيدة التوحيد يأتى الأمر من الله لمحمد صلى الله عليه وسلم : « قل هذه سبيلى أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين » «٥٣»

- ٢٠ -

انه منهج فريد أن تعرض عقيدة التوحيد وما يقابلها من صور الشرك فى آيات القرآن الكريم بهذه الصور الآخاذة المفعمة بالحيوية والحركة وبهذه الاساليب المشرقة المشوقة حيث يهبط المشرك بشركه الى الحضيض إن لم يتلاش . ويرتفع المؤمن الموحد بتوحيده الى القمة ان لم يتجاوزها .وحيث يستند الموحد فى توحيده على اقوى درجات اليقين من خلال البراهين والدلائل ، ويتعلق المشرك فى شركه بأسباب واهية من التخمينات والظنون . وتتعدد صور الشرك فيتقلب المشرك بينها بحيث لا يقر له قرار . وتتحدد حقيقة الايمان فيكون المؤمن بالله الواحد مطمئن النفس مرتاح الضمير لا تذبذب فى فكره ولا تقلب فى حياته .

إن البحث يضنينا إذا أردنا أن نستقصى فى القرآن الكريم حقائق الايمان والتوحيد بدلائلها وظواهر الشرك والالحاد على تباينها . إنه المنهج الالهى الذى لا تنبت العقيدة الصحيحة بغير أرضه ولا تظهر معالمها بغير عرضه . فى حلقة قادمة من هذه الدراسة نعرض بعض هذه المعالم مستمدين العون من الله وحده مستهدين بالقرآن الكريم كتاب الله وبالله التوفيق .

هوامش

---

١ : ١٢٣ ـ ١٢٤ : سورة طه

٢ : ٢٥١ : البقرة

٣ : مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين تاليف : ابى الحسن على بن اسماعيل الاشعرى تحقيق : محمد محى الدين عبد الحميد

٤ : ١٠٥ : آل عمران

٥ : ٤٦ : الانفال

٦ : ٤ ـ ٥ : سورة البينة

٧ : ١٥٩ : الانعام

٨ : تاريخ المذاهب الاسلامية : محمد ابو زهرة

٩ : من الغريب ان الدكتور محمد يس عريبى فى بحوثة : تاملات فى بناء المجتمع الاسلامى يرى ان احياء الحضارة الاسلامية يستلزم امورا منها إحياء « مدارس علم الكلام ص ١٧ مطبوعات جمعية الدعوة الاسلامية .

١٠ : ينظر كتاب : المراجعات . تاليف : عبد الحسين شرف الدين الموسوى . منشورات : المكتبة الاسلامية الكبرى . طهران وكذلك كتاب : الشيعة فى الاسلام . تاليف : السيد محمد حسين الطباطبائى : ترجمة : جعفر بهاء للدين : منشورات . المكتبة الاسلامية الكبرى : طهرن

١١ : يرجع فى هذا الموضوع الى كتاب : شرح الاصول الخمسة . تاليف قاضى القضاة عبد الجبار بن احمد تحقيق وتقديم : الدكتور عبد الكريم عثمان . الناشر . مكتبة وهبة القاهرة وكذلك مجموعة رسائل العدل والتوحيد لبعض اعلام المعتزلة : الجزء الأول ، دراسة وتحقيق محمد عمارة . طبعة دار الهلال القاهرة

١٢ : يرجع فى هذا الى موسوعة : قصة الحضارة بمصادرها المختلفة . تاليف : ول ديورانت ترجمة : محمد بدران . نشر : لجنة التاليف والترجمة والنشر القاهرة
المجلدان : الاول والثانى .

١٣ : ١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٤ ـ ٥ ـ : سورة الاعلى

١٤ : ١٨ ـ ١٩ : سورة الاعلى

١٥ : ٣٦ : النحل

١٦ : سورة الاخلاص

١٧ : ٢٥٥ : البقرة

١٨ : ١ ـ ٢ : آل عمران

١٩ : ٩٨ : سورة طه

٢٠ : ٢٥ : الانبياء

٢١ : ١٧١ : النساء

٢٢ : ٢٣ : فاطر

٢٣ : ٢٨ : سبا

٢٤ : ٤٨ : الشورى

٢٥ : ١١٠ : الكهف

٢٦ : : ٣ يونس

٢٧ : ١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٤ ـ ٥ ـ : الصافات

٢٨ : ينظر فى هذا الموضوع كتاب : خصائص التصور الاسلامى ومقوماته . تاليف : سيد قطب طبعة : عيسى البابى الحلبى . ص٢١٥ وما بعدها

٢٩ : ١٥ : الاسراء

٣٠ : ١٦٥ : النساء

٣١ : ٢٤ : فاطر

٣٢ : كتاب الأربعين لمؤلفه العلامة فخرالدين الرازى يمثل طريقة المتكلمين فى هذا الاستدلال : انظر الكتاب : المسالة الحادية والعشرون . ص٢٢١ ط ١ دار المعارف العثمانية بمدينة حيدر اباد الدكن

٣٣ : ٤ ـ ٥ ـ ٦ : الصافات

٣٤ : ٣ ـ ٤ ـ ٥ ـ ٦ ـ ٧ : النحل

٣٥ : ١٦٣ : البقرة

٣٦ : ١٠ ـ ١١ : لقمان

٣٧ : ٢ ـ ٣ ـ ٤ : الرعد

٣٨ : ٥٤ : الاعراف

٣٩ : ٧٠ : النحل

٤٠ : ٢١ـ٢٢ : البقرة

٤١ : ٢٢ ـ ٢٣ ـ ٢٤ : الحشر

٤٢ : ٣١ ـ ٣٢ ـ ٣٣ ـ ٣٤ ـ ٣٥ : يونس

٤٣ : ٣٦ : يونس

٤٤ : ٦٢ : الحج
٤٥ : ٦٣ : الحج
٤٦ : ٤٧ ـ ٤٨ ـ ٤٩ ـ ٥٠ : الذاريات
٤٧ : ١٥١ : الانعام
٤٨ : ١٢ : لقمان
٤٩ : ١١٦ : النساء
٥٠ : ٢٨ : التوبة
٥١ : ٦٩ الى ٨٢ : الشعراء
٥٢ : ٣٩ ـ ٤٠ : يوسف
٥٣ : ١٠٨ : يوسف